بشروعاته المتعدّدة التي ضربنا عنها صفحاً في هذه المقالة وكفاهُ فخرًا انّهُ زان رتبة الكرادلة الى سنة وفاته ١٤٧٢ بل كاد مرّتين يفوز باكثريّة الاصوات ليجلس على سدّة الخلافة البطرسيّة. وانّما لهُ فخرٌ اعظم من كلّ ذلك لا تمحقه الايّام وهو كونهُ رسول الاتحاد بين الكنيستين

## البرهان الصريح
# في اثبات ألوهيّة المسيح

ردًّا على مجلّة المنار للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

## الفصل الثاني

## الوهيّة المسيح في عيشته الخفيّة

رأيتَ انّ مولد السيّد المسيح مع ما رافقهُ من الذلّ والاتضاع الاختياري دلّ دلالةً لامعةً على جلال لاهوته. وليست حياتهُ الخامدة بعد ميلاده الى ساعة خروجه للدعوة بين اليهود دون غرّة حياته برهاناً على تلك الالوهيّة اذا انتقدها الانسان بعين بصيرته ونزّه قلبهُ عن الاهواء الباطلة والاعتبارات الزمنيّة الواهية

قد اعتاد البشر لضعف ادراكهم ان يقيسوا امور الله على قياس شؤونهم المحسوسة وشتّان بين اعماله تعالى واعمال المخلوقات وانلك ترى حياة المسيح على خلاف ما يتخيّلهُ الانسان في كبار الرجال من الجاه والغنى والشرف العالميّ والقوّة الماديّة فانّ هذه الاشياء انّما تشرّف بشرًا مثلنا وحيات ان تجدي شرفاً الّا متأنّساً ظهر بين الناس لينهج لهم طريق السماء بممارسة الفضائل السامية. فلو كان السيّد المسيح نزل الى ارضنا بأبهة الملوك وجلال السلاطين وبطش الفاتحين فايُّ فضل كان لهُ في فعله وهو ربّ الارباب تذعن لامره السمارات والارضون فانهُ لو فعل ذلك لكان زاد الانسان طعماً في حطام الدنيا ومشاهُ في خيراتها الظاهرة وبفعله كان اغراهُ بدلًا من ان يشفي داءهُ. ولذلك قد آثر في مدّة حياته الخفيّة الخمول والهوان منقطعاً الى الفضائل التي وحدها تعظّم الانسان في اعين الله وتحرّرهُ من

ربقة الشهوات الدنيّة وتطلقهُ من اسر الخطيّة لانَّ « كل من يعمل الخطيئة هو عبدٌ للخطيئة » ( يوحنا ٨ : ٣٤ )

وممَّن خُدعوا بهذه الزخارف الباطلة اولئك المراطقة واصحاب الاناجيل المزوّر الذين خجلوا من ضعة المسيح وخمولهِ في السنين التي قضاها مجهولًا في وقت طفوليتهِ ثم شبابهِ الى كهولتهِ فتراهم يذكرون لهُ الاعاجيب في مهدهِ وفي رواية هربهِ الى مصر من هيرودس وفي زمن اقامتهِ في ارض النيل ثم في مدَّة السنين التي صرفها في حانوت ابيهِ بالذخيرة القديس يوسف البتول . وهذه المعجزات تناقلها العرب ورواها مؤرخوهم وكتبة سير الانبياء كالكسائي في قصص الانبياء وكالثعلبي في كتاب العرائس الذي طُبع مرارًا في مصر والهند ولو جمنا تلك الاساطير لتألف منها كتاب ضخم اثبت انَّ السيد المسيح هو اكبر فاعل للمعجزات . ودونك مثالًا مما رووهُ :

فمن ذلك قولهم انَّ المسيح كان يكلّم الناس في المهد وانَّهُ نطق امام بني اسرائيل لينقذ والدتهُ الطاهرة من تهمة الزنا . وانَّهُ في مسيرهِ الى مصر مع والديهِ وهم هاربون من وجه هيرودس كانت اشجار النخل تحني بعذوقها امامهم لينالوا من ثمرها . وانهُ انبت في بستان المطريَّة شجر البلسان بعد ان اغتسل في ماء بئرها . وانَّهُ في حداثة سنهِ كان يعمد الى طين فيصوّرهُ على شكل الطير ثمَّ ينفخ فيهِ فيطير . وانَّهُ أُتهم بقتل ولدٍ فأنطق الميت ليبرّرهُ من ذاك الاثم . وانَّهُ لمَّا دخل الكتّاب ليتعلَّم اذهل معلّمهُ بعلمهِ العجيب غير المكتسب . وانَّهُ لمَّا تعلَّم حرفة الصباغة كان يصبغ في مغطس واحد ثيابًا فيخرجها في الوان شتى . وآيات اخرى كهذه اختلقوها تنويهًا بمقام السيد المسيح ولا سند لها الَّا مخيلة واضعيها فنبذتها الكنيسة نبذ النواة منذ ظهورها ولم تقبل سوى الاناجيل الاربعة التي سبق المشرق واثبت صحتها وعدم تحريفها بأدلّ البراهين واقطع الحجج فلم يقف حتى اليوم من اعترض على كاتبها

فاذا يُستفاد اذن من هذه الاناجيل لمعرفة حياة السيد المسيح ؟ اعني انَّ ما رواهُ الانجيليّون لزهيد جدًّا لا يتجاوز صحيفةً واحدة وانَّما ذلك كافٍ لبيان الوهيَّة المسيح في تلك السنين الثلاثين التي قضاها قبل ان يظهر دعوتهُ امام بني اسرائيل .

وفي اقوالهم البسيطة غنًى عن المعجزات الغريبة التي وضعها المدلسون لتعظيم ابن الله

*

احد الاحداث القليلة المرويّة في الاناجيل عن السيّد المسيح في باكورة حياته خروجهُ الى مصر باشارة الملاك الى يوسف ابيهِ بالذخيرة قائلًا لهُ (متى ٢ : ١٣ — ١٤): «قُمْ وخذ الصبيّ وأمّهُ واهرب الى مصر ... فانّ هيرودس مزمع ان يطلب الصبيّ ليهلكهُ . فقام واخذ الصبيّ وأمّهُ ليلًا وانصرف الى مصر وكان هناك الى وفاة هيرودس»

ليت شعري ما أبعد هذا من قوّة اللاهوت ! افتزعم انّ الوهيّة المسيح ظهرت في هربهِ ايضاً ؟ نعم لأنّ قوّة الله كثيرًا ما تظهر في الضعف

لم يُعلن المسيح قوّتهُ وقتئذٍ بقتل هيرودس او بعملٍ آخر عجيب يقضي بالقول كما قال بعض الهراطقة انّ المسيح الهٌ فقط وما ناسوتهُ الّا خيال دون حقيقة لكنّهُ اظهر تلك القوّة بانْ أحبط آمال هيرودس على طريقة لم يشعرهُ بها فذهبت مكايدهُ ادراج الرياح واظهرت لكلّ رعاياهُ ظلمهُ وفظائعهُ بقتلهِ لاطفال صغار ابرار ثمّ زادت اليهود علماً بانّ الصولجان خرج من يهوذا كما كان تنبّأ بهِ يعقوب وانّ مجيء المسيح قد حان زمنهُ

وزد على ذلك انّهُ بقتل اطفال بيت لحم تمّت نبوّة ارميا النبيّ (٣١ : ١٥): «هكذا قال الربّ: صوتٌ سُمع بالرامة ندبٌ وبكاء مرّ. راحيل تبكي على بنيها وقد أبت ان تتعزّى لانّهم ليسوا في الوجود» لكنّ ذاك الدم الزكي المهراق كان كمداد يرّ نفوس اولئك الصغار من الخطيئة الاصليّة وفتح لهم باب الفردوس باستحقاقات المسيح فاديهم كما أنّهُ اضحى كدم هابيل يطلب الانتقام من الطاغية وعمّا قليل سيسمع الله صوتهُ فيضرب ذاك الملك العاتي الظالم ضربةً اليمة يشمت بجارها كلّ مبغضيه

ولا بُدّ من القول ايضاً انّ السيّد المسيح اراد الدخول في مصر ليقدّس ارضها التي اصبحت بعد صعودهِ بقليل تربةً خصبةً ازهرت فيها النصرانيّة بنوع عجيب كما تشهد عليهِ الآثار المتعدّدة التي خلّفها القدماء ويستخرجها علماء عصرنا كلّ يوم من زوايا النسيان ومن مطامير الفيوم وغيرها . فهناك أُنشئت اوّل المدارس النصرانيّة

العموميَّة التي اشتهر فيها اقليميس الاسكندري وپنتانوس رسول اليمن واوريجانوس المعلم . وهنـاك انتشرت المعيشة الرهبانيَّة الفضلى التي حوَّلت بلاد الصعيد الى فردوس سماويّ بعد انطونيوس الكبير والالوف المؤلفة من تلاميذهِ . أفلا يجوز نسبة هذه المآثر الجليلة الى الطفل الالهيّ وهو كلمة الله الذي خلق بدخولهِ الى مصر عالماً جديداً روحيًّا كما خلق في البدء عالمنا الهيولي اذ قال لهُ : كن فكان . ثمَّ يجب القول ايضاً انَّ السيِّد المسيح بدخولهِ مصر حقَّق فعلاً نبوَّة هوشع ( ١١ : ١ ) القائل عن المسيح المرموز اليهِ باسرائيل ( متى ٢ : ١٥ ) : « من مصر دعوتُ ابني »

*

ومن المرويَّات عن المسيح في حداثة سنه ما اخبر بهِ لوقا ( ٢ : ٤١ — ٥٢ ) عن صعودهِ الى اورشليم في الثانية عشرة من عمرهِ حيث تخلَّف عن والديهِ وبقي في الهيكل على غير علمهما فابتعدا عن القدس وكلٌّ منهما يظنّ انَّ يسوع الصبيّ مع فرقة الآخر . ثمَّ طلباهُ بعد مرحلتهما الاولى فلم يجداهُ فعادا الى اورشليم كئيبَين وفي اليوم الثالث لقياهُ في الهيكل « جالساً فيما بين المعلّمين يسمعهم ويسألهم وكان جميع الذين يسمعونهُ مندهشين من فهمهِ واجوبتهِ » واذ سألتهُ امُّهُ لِمَ صنع بهما هكذا وهما يطلبانهِ متوجّعين قال لهما : « لماذا تطلباني ألم تعلما انَّهُ ينبغي لي ان اكون فيما هو لأبي »

تلك المرَّة الوحيدة خرج فيها السيِّد المسيح عن خطَّة الاتضاع والخمول التي لزمها مدَّة حياتهِ الخفيَّة وبها اضواً دليل على الوهيَّته . ( اوَّلاً ) بتفرُّدهِ عن والديهِ اظهر بنوع جليّ انهُ هو السيِّد يمكنهُ ان يصنع ما يشاء ويتصرَّف باعماله كيفما يشاء حتى في ابَّان صباه وانَّهُ بقبوله الطاعة لاهله انَّما فعل ذلك من تلقاء ارادته وليس لاحد حتى ولا لوالدته الطاهرة ان يسألهُ السبب عن اعماله . ( ثانياً ) بجلوسه بين علماء اسرائيل وهو في سنّ الطفولية أشعرهم بسمو تعاليمهم واسئلته التي القاها عليهم واجوبته التي كان يجيب بها على مطارحاتهم انَّ علمهُ ليس بثمرة الدرس الطبيعي المحصَّل بل هو من صفاتهِ الجوهريَّة فابصر رؤساء اليهود « مجد الكلمة المتجسد مجد وحيدٍ من الآب مملوءاً نعمةً وحقًّا . . . الذي من امتلائه نحن كلُّنا اخذنا » ( يوحنا ١ : ١٤ — ١٦ ) وتحقَّقوا منذ ذاك الحين ما سوف يقرُّون بهِ يوماً عند ما

يسمعونهُ فيصرخون ( يوحنا ٧ : ٤٦ ) : « ما تكلم انسانٌ قطّ بمثل ما تكلم هذا الرجل » ويشهدون بانّ علمهُ هذا ليس تحصيلًا قائلين ( متى ١٣ : ٥٤ مرقس ٦ : ٣ ويوحنا ٧ : ١٥ ) : « من اين لهُ هذه الحكمة والقوّات اليس هذا ابن النجّار ... من اين لهُ هذا العلم وهو لم يدرس الكتب » . ( ثالثاً ) بكلامهِ العجيب الى مريم ويوسف حيث قال لهما : « ألم تعلما انهُ ينبغي لي ان اكون فيما هو لأبي » . جاهر امامهما بكونهِ ابناً لله الازلي ولذلك دعاهُ « ابّاً » لهُ بالافراد معلناً بانهُ لا يريد أبوّةً مجازيّة بل ابوّة جوهريّة فنطق منذ تلك الساعة بحقيقة لاهوتهِ واكّد تلك النسبة التي لاجلها اراد اليهود بعد ذلك قتلهُ كما اخبر يوحنا (٥ : ١٨) حيث قال : « ازداد اليهود طلباً لقتلهِ ليس لانهُ كان ينقض السبت فقط بل ايضاً لانهُ كان يقول انّ الله ابوهُ مساوياً نفسهُ بالله »

*

وبعد هذا الحادث لا يروي كتبة الاناجيل عن يسوع المسيح غير ما رواهُ لوقا بقولهِ ( ٢ : ٥١ — ٥٢ ) : « ثم نزل معهما واتى الناصرة وكان خاضعاً لهما » ولمّح الانجيليّون الى ما كان يارسهُ من الشغل في بيت يوسف حيث نقلوا ما كان يقال عنهُ « بانهُ نجّار » ( مرقس ٦ : ٣ ) « وابن نجار » ( متى ١٣ : ٥٥ ) فاختصروا حياتهُ بتبيان خمولهِ وذكر خضوعهِ والاشارة الى ارتزاقهِ بالشغل

فاذا نقول ؟ أهذا يليق بالله ؟ أنبني على هذه الصفة برهاناً لبيان ألوهيّتهِ ؟ او ليس الاحرى بانصرانيّ ان يخجل من الهٍ هذه صفتهُ ؟

كذا يقول العالم والذين « لا يفطنون لما لله لكن لما للناس » ( مرقس ٨ : ٣٣ ) . امّا الله الذي لا يحكم كحكم البشر فقد اراد ان « يُجهّل حكمة هذا العالم » ( ١ كور ١ : ٢٠ ) بل اراد ان « يُبيد حكمة الحكماء ويرذل عقل العقلاء » ( ١ : ١٩ ) حتى يُظهر لكلّ ذي عين « انّ مستجهَل الله احكم من الناس ومستضعف الله اقوى من الناس » ( ١ : ٢٥ ) فاختار ابنهُ الوحيد هذه العيشة الخاملة لانهُ رآها احسن وسيلة ليلقّن الانسان العيشة الصالحة التي وحدها تعظّم المرء وترفع قدره على خلاف بقيّة المناقب التي يبتغي فيها البشر ولا يطلبون الّا الاستبداد والجاه العالميّ وبذخ العيش

عرف ابن الله انَّ اعداء الانسان ثلاثة عدَّدها يوحنَّا الرسول في رسالته الاولى ( ٢ : ١٦ ) حيث قال : « انَّ كلَّ ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العين وفخر الحياة » فتلك هي الاسقام الثلاثة التي ابتُلي بها جنسنا وفشت عُدواها في كلّ البشر فاراد طبيبنا الالهيّ الذي نزل من السماء ان يشفينا من هذه الادواء ولم يجد لذلك دواءً انجع من ان يجعل سيرتهُ مثالاً لحياتهم فاراد ان يُخضع نفسهُ للشغل الشاقّ ليكسر شهوة الجسد الى لذّات العالم . واراد ان يحمل عبء الفقر والمسكنة ليقمع شهوة العين التائقة الى حطام العالم واراد ان يعيش خاملاً ليناصب فخر الحياة فيا لهُ من مثال عجيب اعطاهُ ابن الله للبشر من شأنهِ ان يُفحم كلّ ابيّ متعظِّم وقدَّمهُ لنا بالفعل قبل أن يُعلِّمهُ بالكلام لانَّ السيِّد المسيح كما قال القديس لوقا في سفر الاعمال ( ١ : ١ ) ابتدأ ان يعمل بنفسهِ ما علَّمنا اياهُ بعد ذلك بكلامهِ اذ ليس برهان اقنع للانسان من المثل . وقد قال الحكماء : انَّ طريق الكلام طويل اما الامثال فطريقها مُختصر . فايّ انسان يستطيع ان يردّ كلام ابن الله اذا سمع من فيهِ قولهُ : « طوبى للمساكين . طوبى للمتواضعين . طوبى لمن يزدرون بهذا العالم واباطيل هذا العالم ليربحوا نفوسهم » فانَّهُ لا يسعهُ الَّا الانقياد الى قولهِ تعالى بعد ان رآهُ تذلَّل وتمسكن وخلَ من قبلهِ . فهذه هي اعمال الله وهكذا شفى ابنُ الله امراضنا واخذ على نفسهِ عاهاتنا وبدائهِ شفينا ( اشعيا ٥٣ : ٥ )

ولا يفهم قوَّة هذا المثل الذي اعطاهُ السيِّد المسيح للبشر الَّا من عرف حالة الامم يوم تأنَّس ابن الله فانَّ العالم بانتشار الوثنيَّة على وجه الارض كان غائصاً في ردغات الفساد فتخيَّر لهُ آلهةً تضاهيهِ في شهواتهِ فأله تلك الشهوات وجنا راكعاً امام الزُّهرة العاهرة وباخوس السكير وناشتري الزاني وعطارد السارق وقس عليهِ بقيَّة المعبودات الشبيهة بها عند ارقى الشعوب تمدُّناً واوسعهم عقلاً كاليونان والكلدان والمصريين والرومان . فليت شعري من كان يقوى على مقاومة كلّ هذه الشهوات النجسة الَّا إله متأنس يعلِّم الانسان طريق الفضيلة ويرشدهُ الى سبيل الصلاح ليس بكلامهِ فقط ولكن بامثالهِ المحسوسة فيستطيع ان يقول للعالم ( يوحنَّا ١٣ : ١٥ ) : « اني اعطيتُكم قدوةً حتى انكم تصنعون كما صنعتُ انا » اذ « ليس عبدٌ فوق سيِّدهِ » ( متى ١٠ : ٢٤ )

وقد مارس السيّد المسيح بمثله اشدّ ما كان ينفر منهُ العالم . كان العالم يعتبر الشغل كسمة العبيد ويحبُّ الخلود الى الراحة ورغد العيش والملذّات فشرّف الشغل بمزاولتهِ لهُ مدّة ثلاثين سنة . وعلّم الانسان « انّهُ يولد للمشقّة كما يولد الطير للطيران » ( ايوب ٥ : ٧ ) . كان العالم يعظّم الحرّيّة والاستبداد ويأبى الخضوع والطاعة فكسر السيّد المسيح عنفوانهُ بخضوعهِ لمخلوقاتهِ مع انّهُ الربّ الذي تحقّ لهُ كلّ رئاسة وكلّ عظمة . كان العالم لا يترك الّا لحشد الاموال والغنى والماديّات الارضيّة فعلّمهُ السيّد المسيح ان يزهد بالدنيا ويقنع بالقليل وينبذ عنهُ المطامع ويعتبر الفقير كاخٍ لهُ ويُحسن اليهِ بالمال الذي هو في يدهِ كوديعة الخالق الذي وكلهُ اليهِ ليوزّعهُ على المحتاجين . وقد تمّم بكل ذلك ما تنبّأ عنهُ النبيّ داود في المزامير حيث قال عن لسان المسيح ( مز ٨٧ : ١٦ ) : « اني في البؤس والكدّ منذ صباني »

هذا ما فعلهُ ابن الله مدّة السنين الطويلة التي قضاها في الناصرة اقترى انهُ طاش سهماً بفعلهِ او ليس الاحرى ان يقال انهُ اصاب الهدف وأتى الامر من قصدهِ وداوى الجرح احسن مداواة فكأنّهُ قال بلسان حالهِ للانسان : انك قد هبطت من السعادة التي أعطيتها بالفردوس لأنّك بعجرفتك اردت ان تتشابه بالاله اذ خالفت وصيّة خالقك وفضّلت مشورة ابليس حين قولهِ لك بلسان الحيّة لحوّاء : « انكما تصيران كآلهة عارفي الخير والشرّ » فكان عصيانك سبب ذلكِ وشقائك فها هنذا صرتُ شبيهاً بك انساناً فتشبّه بي واسلك مسلكي فهذه المرّة لا بأس عليك ان تصير الهاً بهذا الشبه وترقى الى اعلى مقام الشرف

فليقم الآن كلّ ذي عقل وانصاف وليقل لنا أفكان يمكن لإله ان يجري على خطّة امثل وطريقة اصوب ممّا اختارهُ السيّد المسيح ليزيل اضاليل العالم ويغلب شهواتهِ . وان تجرّأ احد وفكّر الامر ارياءُ الانقلاب العظيم الذي صار منذ ذاك الوقت في احوال الدنيا . ارياءُ الاغنياء ينبذون ثروتهم ليتبعوا ابن الله في فقرهِ ارياءُ عظام الدنيا يطلبون خدمة الصغار والمرضى والعجزة . ارياءُ الملوك نازلين عن منصّة الملك ليقضوا حياتهم في اعمال الامانة والتقشّفات فلولا السيّد المسيح ومثالهُ أكان رأى العالم كلّ هذه العجائب . فليس للانسان العاقل بعد هذا الّا ان يصرخ هاتفاً الى خامل الناصرة : « انّك حقيقة انت ابن الله » ( لهُ بقيّة )